الفصل الرابع

هيكل سليمان والبحث عن السراب

أحمد الدبش

لما كان داود وسليمان التوراة يشكلان مرتكزًا وأساسًا للمزاعم الصهيونية، ولما كان ينظر إليهما، كما هو الحال، كجدٍّ للصهيونية المعاصرة، فيجب توضيح أن جهود الباحثين التوراتيين في البحث عن المملكة الداودية ـ السليمانية ليست ذات أهمية تاريخية وأثرية فقط، إذا ما أخذنا في الاعتبار أن دولة إسرائيل الحديثة ترجع مطالبتها التاريخية والطبيعية إلى دولة العصر الحديدي تلك. فقد أشار إعلان الاستقلال لدولة إسرائيل الحديثة الذي أصدره مجلس الأمة المؤقت في تل أبيب، في ١٤/ ٥/ ١٩٤٨، أشار إلى «إعادة بناء الدولة اليهودية ـ re-establishment of the Jewish state»، وما هذا التعبير إلا صياغة لوعد بلفور الذي أعلن قبل واحد وثلاثين عامًا من إنشاء الدولة، ذلك الوعد الذي تحدث عن «إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين».

إن الباحثين التوراتيين، وكذلك علماء الآثار، قد بحثوا عن دولة كبرى في العصر الحديدي، قوية وذات سيادة مستقلة ومؤسسها داود وابنه سليمان وتصوروا أن هذه المملكة قد وجدت بالفعل. وقد هيمنت تلك «الحقيقة» المزعومة على خطاب الدراسات التوراتية، خلال معظم القرن العشرين، وأتاحت مجالًا لتطوير كثير من فرضيات التراث التوراتي، وهذه «الحقيقة» المزعومة أسهمت أكثر من أي شيء آخر في إهمال وتحقير الشعب الفلسطيني وثقافته، مع إغفال التاريخ الذي بقي آلافًا من السنين لفلسطين، ذلك التاريخ الذي تعامى عنه علماء الآثار بالمعنى الحرفي لكلمة التعامي.

في ذلك يقول أحد العلماء الغربيين: «إن علم الآثار في فلسطين شدد على مواقع العهد القديم. إن العهد القديم، وبالتالي التاريخ اليهودي القديم في فلسطين (كما هو مصور في التوراة) هو الذي سعى اللاهوتيون إلى إثبات صحته.

وحتى أولئك المسيحيون، الذين اعتبروا فلسطين وطنًا ليسوع، كانوا سيجدون أنفسهم، جراء اتباعهم تغطية علم الآثار في فلسطين، أنه قد تمت إعادة توجيههم نحو فلسطين الملكين داود وسليمان، وخلفائهم ما قبل المسيحية، رغم بقائها ذات أهمية دينية. ففيما سعى الصهاينة ماديًا إلى تحويل فلسطين إلى وطن قومي يهودي، ساهم عمل علماء الآثار في تحويل فلسطين ، على الصعيد النفسي، إلى أرض يهودية»[1].

شبح داود وعفريت سليمان

من القضايا المهمة، التي تشير إلى مغالطات المؤرخين وتبنيهم وجهة نظر التوراة، وأحيانًا كثيرة المغالاة فيها، موضوع «المملكة الداودية ـ السليمانية»، فمعظم الذين كتبوا في هذا الموضوع من الباحثين التوراتيين والغربيين، وساندهم في ذلك أصحاب وحراس الفكر الآسن من الأكاديميين العرب، أشاروا إلى أن هذه المملكة، التي عادة ما تُرْبَطُ بالفترة الممتدة من (٩٦٠ ـ ٩٣٠ ق.م)، كانت أعظم إمبراطوريات المشرق العربي، وأن حدودها امتدت لتغطي كل بلاد الشام، ولم تقتصر على فلسطين فحسب. وبالرغم من أن التوراة لا تكل عن مديح عصر داود وسليمان، واعتباره «العصر الذهبي الإسرائيلي»، والإشادة بما يقال عن إنجازات عصرهما، الثقافية، والعمرانية، والإدارية، فمن الطبيعي أن نتوقع العثور على أثر واحد، على الأقل، يعود إلى تلك المرحلة، عمرانيًا كان أم توثيقيًا، أو نقشًا، أو ما إلى ذلك. لكن الحقيقة، حتى هذه اللحظة، لم يتمكن الآثاريون من العثور على أي دليل يشير، صراحة أو كناية، على المملكة الداودية ـ السليمانية في فلسطين.

إن مصدرنا الوحيد عن أعمال داود وسليمان، وعن دورهما السياسي والعمراني هو التوراة، والتوراة وحدها، إذ لم يعثر المنقبون على أي أثر من هذا الدور. فلا توجد مصادر تاريخية تدعم السجل التوراتي، كما لا تسهم المخلفات الأثرية في إيضاح ذلك. مما يعطي الحق للباحث أن يطرح تساؤلات، في حالة انعدام الوثائق والبيانات. فالمملكة الداودية ـ السليمانية المزعومة التي قيل إنها تأسست مع نهاية الألف الثاني قبل الميلاد في فلسطين، كما يزعم بعض الباحثين الغربيين، ومن يواليهم من أصحاب الفكر الآسن في جامعاتنا ومراكز أبحاثنا، لا بد أن تكون قد سبقتها مدة طويلة، وأن يكون تأسيسها قد تمخض عن صراع محتدم بين دويلات المدن، آنذاك، فأين هي مقدمات تأسيس المملكة الداودية ـ السليمانية ؟!

إذا كان علماء الآثار يبحثون عن أرشيف تاريخي للمرحلة السابقة لممالك داود وسليمان، فإنهم لم يعثروا على ذلك في فلسطين، علمًا بأن الدول المجاورة قد قدمت أرشيفًا تاريخيًا للمرحلة نفسها.

يعلن أمنون بن ثور، عالم الآثار في الجامعة العبرية، أن المسألة تشبه نقطة زيت تسقط فجأة قد تجدها في كل مكان، إلا هنا[2].

في السنوات الأخيرة، بدأ الإجماع على فكرة وجود المملكة الداودية ـ السليمانية يتداعى تدريجيًا، وإن كانت هذه الفكرة لا تزال تهيمن على خطاب الدراسات التوراتية، ومن يواليهم من أصحاب الفكر الآسن وحراسه من بعض الأكاديميين العرب. فقد أصدر ليتش نقدًا معتدلًا في حدته للاستخدام التاريخي للقصص التوراتية، من منظور أنثروبولوجي بنيوى. والموضوع السائد في كتابه هو أن الكتاب العبري بوصفه نصًا مقدسًا، لا يوفر مصدرًا تاريخيًا ولا يعكس بالضرورة حقيقة عن الماضي. إنه يمثل عند ليتش تبريرًا للماضي، يكشف عن عالم القصّاصين، أكثر مما

يكشف عن أية حقيقة تاريخية. ويطرح أسئلة مهمة جدًّا، تثير شكوكًا حول التقديمات السائدة لحكميْ داود وسليمان، وتساءل عن تاريخية هذه المرحلة المهمة كما قُدمت في الموروثات الكتابية؛ وهذا أمر غير قابل للتصديق. ليس هناك أي دليل أثري على وجود هذين «البطلين»، أو على وقوع أي من الأحداث التي ارتبطت بهما. ولولا قداسة هذه القصص لكان وجودهما التاريخي مرفوضًا، بالتأكيد[٣].

ما قاله العالم روني ريك في هذا الصدد: «آسف، إن السيد داود والسيد سليمان لم يظهرا في هذه القصة»[٤].

لعل السمة الأكثر إدهاشًا في الخطاب [الكتابي] هي الصمت المطبق للسجل الآثاري حول ما يتعلق باللحظة التعريفية [فترة سليمان وداود] في تاريخ المنطقة. إنه الصمت الذي أسهم، بشكل أساسي ضمن مشروع، وتحديدًا بسبب أنه أكد تحامل المؤرخين الكتابيين الذين قرروا أن كتابة التاريخ تعتمد على المصادر المكتوبة، كما صرح «غاريبي»، و «ليتش»، و «فلاناغان» بأن صمت السجل الآثاري هو الذي يطرح أكثر الأسئلة جدية حول تقديم إمبراطورية إسرائيلية، بوصفها تعبيرًا عن ثقافة حضارة نهضوية، ويوحي بأننا نتعامل مع ماضٍ مخترع[٥].

يشير مِلَّر إلى أنه ليس هناك دليل على المملكة الداودية ـ السليمانية خارج التقاليد، والموروثات الكتابية، والمؤرخون الذين يتحدثون عن هذا الكيان إنما يفترضون، مسبقًا، صحة المعلومات التي يأخذونها من الكتاب العبري[٦].

شكك عالم الآثار الإسرائيلي يسرائيل فنكلشتاين من جامعة تل أبيب بوجود أي صلة لليهود بالقدس، جاء ذلك خلال تقرير نشرته مجلة «جيروساليم ريبورت» الإسرائيلية وفيه أوضحت وجهة نظر «فنكلشتاين»، الذي أكد أنه لا يوجد أساس، أو شاهد إثبات تاريخي على وجود داود، هذا الملك المحارب، الذي اتخذ من القدس عاصمة له، والذي سيأتي (الميا) من صلبه، للإشراف على بناء الهيكل الثالث، مؤكدًا أن شخصية داود، كزعيم يحظى بتكريم كبير، لأنه وحَّد مملكتي يهودا وإسرائيل، هو مجرد وهم وخيال، لم يكن لها وجود حقيقي. كما يؤكد فنكلشتاين أن وجود باني الهيكل ـ وهو سليمان بن داود ـ مشكوك فيه أيضًا [٧].

يقول العلاّمة طمسن، عالم الآثار والتاريخ الأمريكي : «جرى تقديم [القرن العاشر ق.م] بوصفه العصر الذهبي لإسرائيل، وعاصمتها في أورشليم. كانت تلك الحقبة مرتبطة بالمملكة المتحدة، التي تضم السلطة السياسية لشاؤول، وداود، وسليمان، وتسيطر على الجسر البري الضخم من النيل إلى الفرات. إضافة إلى مفهومها عن الهيكل، الذي بناه سليمان، بوصفه مركزًا لعبادة يهوه. تلك الصور لا مكان لها في أوصاف الماضي التاريخي الحقيقي. إننا نعرفها، فقط كقصة، وما نعرفه حول هذه القصص لا يشجعنا على معاملتها كما لو أنها تاريخية، أو أنه كان يقصد منها أن تكون كذلك. ولا يتوافر دليل على وجود مملكة متحدة، ولا دليل على وجود عاصمة في أورشليم، أو وجود أي قوة سياسية موحدة متماسكة، هيمنت على فلسطين الغربية، ناهيك عن إمبراطورية بالحجم الذي تصفه الحكايات الأسطورية. ولا يتوافر أي دليل على وجود ملوك يدعون شاؤول أو داود أو سليمان؛ ولا نملك دليلًا على وجود هيكل في أورشليم، في هذه الفترة المبكرة. ما نعرفه عن إسرائيل ويهوذا القرن العاشر لا يسمح لنا بتفسير انعدام الدليل هذا، بوصفه فجوة في معرفتنا، ومعلوماتنا، حول الماضي، أو مجرد نتيجة للطبيعة العرضية للآثاريات. ما من متسع، ولا سياق، لا شيء مصطنع، أو أرشيف، يشير إلى مثل هذه الحقائق التاريخية في القرن العاشر في فلسطين. لا يمكن للمرء أن يتكلم عن دولة بلا سكان. ولا يمكنه أن يتكلم عن عاصمة من دون بلدة. والقصص ليست كافية [٨].

إذن، لا يوجد متسع لمملكة متحدة تاريخية أو لملوك كأولئك الذين جرى تقديمهم في القصص الكتابية لشاؤول، وداود، وسليمان. إن الحقبة المبكرة التي تؤطر فيها التراثات حكاياتها، هي عالم خيالي، من زمن غابر، لم يوجد على هذا النحو أبدًا. لم يكن من الممكن أن توجد مملكة لأي شاؤول، أو لأي داود، ليكون ملكًا عليها، ببساطة، لأنه لم يكن ثمة ما يكفي من الناس. دولة يهوذا لم تكن فقط غير موجودة، بعد، بل إننا لا نملك أي دليل على وجود أي قوة سياسية في أي مكان في فلسطين، كانت كبيرة بما يكفي، أو متطورة بما يكفي لأن تكون قادرة على توحيد الاقتصاديات والأقاليم العديدة لهذه البلاد. في هذا الوقت كانت فلسطين أقل توحدًا بكثير مما كانت عليه لأكثر من ألف عام. ويكاد الحديث أن يكون غير ممكن، تاريخيًا، عن أورشليم القرن العاشر. فلو وجدت إطلاقًا، ولم تعثر سنوات من التنقيب على أي أثر لبلدة من القرن العاشر، لكانت ما تزال تبعد قرونًا عن امتلاك المقدرة على تحدي أي من (العشرينيات) أو أكثر، من بلدات فلسطين القوية، المتمتعة بالحكم الذاتي[٩].

إن الصورة التقليدية التي تقدمها «أسفار العهد القديم» عن أورشليم، مطلع العصر الحديدي الأول، مدينة داود وسليمان، هي صورة مدينة كبيرة جميلة، ذات تحصينات، وقصور، ومخازن، ومعبد رائع الصنعة. وفي المقابل، فإن مؤلفات صدرت حديثًا لطمسن، وديفيد جيسون درايك، ترى بأن أورشليم القرن العاشر قبل الميلاد لم تكن أكثر من بلدة صغيرة، لعبت دور السوق المحلي للمنطقة. إن البقايا الأثرية التي اكتُشفت، حتى الآن، لتدل على أن أورشليم كانت خلال القرن العاشر والقرن التاسع قبل الميلاد بلدة متواضعة، تشغلها بصورة رئيسية، الأبنية الإدارية، أما مساحتها فلم تزد عن ٣٠ أكرًا، ولم يسكن فيها أكثر من ٢٠٠٠ نسمة. أي أنه في زمن ما من القرن العاشر والتاسع قبل الميلاد جرى تشييد بلدة جديدة، تحتوي على أبنية عامة، ولكن من دون منطقة سكنية واسعة. ونحن هنا نصف هذه البلدة بالجديدة؛ لأن بلدة عصر البرونز الوسيط، لم تكن قائمة، خلال عصر البرونز الأخير، وعصر الحديد الأول. ومن المستبعد أن هذه البلدة كانت عاصمة لدولة كبرى كتلك الموصوفة في النص التوراتي، مملكة إسرائيل الموحدة[١٠].

يقول عالم الآثار الإسرائيلي أ. فنكلشتاين والمؤرخ الأمريكي ن. سلبرمان: «وكما رأينا، فإنه لا وجود لشواهد أركيولوجية مقنعة على وجود مملكة تاريخية موحدة، اشتملت على جميع أراضي إسرائيل [فلسطين]، وكانت عاصمتها في أورشليم»[١١].

لقد انزعجت مجلة bar الأمريكية من هذا الاتجاه؛ لأنها متخصصة في الدعاية لإسرائيل، خاصة في مجال الحفريات، فجمعت العلماء من الاتجاهين المختلفين. حيث كان يمثل مدرسة كوبنهاجن، شيفلد الأستاذان: طمسن، وليتش، وكلاهما من جامعة كوبنهاجن.وكان يمثل الطرف الثاني: الأستاذ وليم ديور، من جامعة أريزونا، وهو يعتبر ذا شهرة عالمية في مجال دراسة الآثار في فلسطين. والأستاذ كائل ميك آرثر، من جامعة جون هوبكنز. ونشرت المناقشات التي دارت بين الفريقين على صفحات مجلة bar نفسها في يوليو/ أغسطس ١٩٩٧.لقد نفى طمسن أن تكون أوروشليم عاصمة للمملكة الموحدة في القرن العاشر قبل الميلاد. ولقد ذكر الباحث الإسرائيلي إسيكشن، وثنى عليه فينكلشتاين، أيضًا، بأنه لا يوجد في الحفريات البقايا من الأواني الفخارية، من القرن العاشر قبل الميلاد، أي من عصر داود وسليمان، ولذلك استنتج ليتش بأن داود الملك، المذكور في العهد القديم، لا يمكن إثباته تاريخيًا.

فقال ديور، في مناقشته: لم لا تقول إنه من الممكن أن يكون، ومن الممكن كذلك أن لا يكون؟ رد ليتش: لأن العهد القديم يصوره إمبراطورًا، كان يحكم من الفرات إلى النيل، وقد أضاف سليمان إلى هذه الإمبراطورية مساحات أخرى؛ لذلك لا يمكن أن يكون داود شخصية تاريخية.ووافق ديور نفسه على هذا القول، واتفق مع ليتش بأنه لا يوجد داود وسليمان بهذا المفهوم [١٢].

في استعراض «غبريل باركاي ـ Gabriel Barkay» أستاذ الآثار في جامعة بار إيلان قرب تل أبيب لآثار فترة العصر الحديدي الثاني، يتوصل إلى الاستنتاج بأن «التحديد الدقيق لتاريخ طبقات التوطين، ومجموعات اللقى، العائدة للقرنين العاشر والتاسع قبل التاريخ الشائع محفوف بالمصاعب». كما اضطر باركارى لأن يستنتج بأن (فكرة المجد)، التي تنبثق من الروايات الكتابية، لا تتطابق مع «الواقع الذي تعكسه اللقى الأثرية»[١٣].

والخلاصة، أن الأثريين لم يتمكنوا من العثور على دليل يشير صراحة أو كناية إلى مملكة داود وسليمان في فلسطين. وبينما تقول رواية سفر صموئيل الثاني، وسفر الملوك الأول، بأن الملك داود أقام إمبراطورية امتدت بين النيل والفرات، أورثها لسليمان بعد وفاته، لم يتمكن رجال الآثار من العثور على ذكر واحد لأي من ملكي بني إسرائيل، رغم وجود ٣٠٠ موقع تقوم فيها البعثات الأثرية بأعمال الحفر، في بلادنا فلسطين. وإذا كانت المملكة الداودية ـ السليمانية ليست أكثر من اختراع توراتي تنفيه كل الوقائع الأركيولوجية والتاريخية في بلادنا فلسطين، أفلا ينجم عن ذلك القول بأن البحث عن المملكة الداودية ـ السليمانية قد تم في المكان الخاطئ؟ فهل كانت اليمن الموطن الأصلي لداود وسليمان أو ما يعرف بالمملكة الداودية ـ السليمانية؟[١٤].

البحث عن هيكل سليمان

يتحدث كاتبو سفر الملوك الأول (٦: ٢ ـ ٩) عن بناء هيكل سليمان، قائلين: «فأرسل سليمان إلى حيرام (ملك صور) يقول: أنت تعلم داود أبي أنه لم يستطع أن يبني بيتًا لاسم الرب، إلهه، بسبب الحروب التي أحاطت به، حتى جعلهم الرب تحت بطن قدميه، والآن فقد أراحني الرب إلهي من كل الجهات، فلا يوجد خصم ولا حادثة شر، وها أنذا قائل على بناء بيت لاسم الرب إلهي. والآن، فأمر أن يقطعوا لي أرز لبنان، ويكون عبيدي مع عبيدك، وأجرة عبيدك أعطيك إياها حسب كل ما تقول، لأنك تعلم أن ليس بيننا أحد يعرف قطع الخشب، مثل الصيدونيين. وأرسل حيرام إلى سليمان، قائلًا: قد سمعت ما أرسلت به إليَّ، وأنا أفعل كل مسرتك في خشب الأرز وخشب السرو. وأنت تعمل مرضاتي بإعطائك طعامًا لبيتي».

لكن، لنتوقف قليلًا أمام أبعاد هذا الهيكل (بيت الرب)، «والبيت الذي بناه سليمان للرب طوله ستون ذراعًا، وعرضه عشرون ذراعًا، وسمكه ثلاثون ذراعًا» سفر الملوك الأول (٦:٢).

إذا علمنا أن الذراع الإسرائيلي القديم يساوي ٥٢ سم، فإن طول المعبد يصبح ٣١,٥ مترًا، وعرضه ١٠,٥ متر، وارتفاعه ١٥,٥ متر. وبعد أن تم بناء بيت الرب، «حينئذ، جمع سليمان شيوخ إسرائيل، وكل رؤوس الأسباط، رؤساء الآباء من بني إسرائيل إلى الملك سليمان في أورشليم، لإصعاد تابوت العهد الرب من مدينة داود، هي صهيون. وجاء جميع إسرائيل؛ وحمل الكهنة التابوت. وأدخل الكهنة التابوت عهد الرب إلى مكانه في محراب البيت

في قدس الأقداس، إلى تحت جناحي الكروبيين. ثم إن الملك، وجميع إسرائيل معه، ذبحوا ذبائح أمام الرب. وذبح سليمان ذبائح السلامة التي ذبحها للرب: من البقر اثنين وعشرين ألفًا، ومن الغنم مائة ألف وعشرين ألفًا، فدشن الملك جميع بني إسرائيل، بيت الرب» سفر الملوك الأول (١: ٨، ٣، ٦، ٦٢ ـ ٦٣).

غني عن القول بأن التفاصيل الواردة في سفر الملوك الأول تتسم بالحماقة والمبالغة. ولن يلبث هذا الوصف، المدعو بالإلهي، أن يتلاشى كالثلج تحت أشعة الشمس، إذا ما خضع لنقد يتمتع بهذا القدر من الجدية، أو ذاك. لقد عمل في بناء المعبد ١٨٣,٣٠٠ عامل، ما عدا الحجارين، والعمال الآخرين، الذين يظهرون، فيما بعد. وطول المعبد ليس أكثر من ٣١,٥ متر، وعرضه ١٠,٥ متر. وقد صرف هؤلاء البنائيون سبع سنوات على تشييد مبنى مؤلف من ثلاث غرف، ويشغل مساحة لا تزيد على ٣٢٥ مترًا مربعًا. إنها أرقام تجعلنا نصاب بالذهول، إذا ما كانت لدينا فكرة بدائية جدًّا عن أعمال البناء. فهل كان عمّال سليمان كسالى إلى هذا الحد؟!

مع ذلك فإن أبعاد البناء التي يذكرها سفر الملوك الأول، لا تتوافق مع تلك التي يذكرها سفر الأيام الثاني (٣ ـ ٤). ويكفي وجود مثل هذا الاختلاف في كتاب يُزعم أنه «مقدس»، ليخلق لدينا الشك، هذا إذا لم يكن النص كله مجرد هراء لا طائل منه. أضف إلى هذا، أن وصف البناء الداخلي يثير مزيدًا من السخرية، عدا أن الطابق السفلي أضيق من العلوي بمتر كامل، وهذا بحد ذاته أمر مذهل! وتلك النوافذ الجانبية، الواسعة من الداخل، والضيقة من الخارج، فيا له من اختلاق واسع رحب؟!

لنتوقف هنا قليلًا لدراسة هذه النصوص دراسة آثارية، وتاريخية، وجغرافية:

ـ إذا عدنا إلى النص التوراتي ذاته لوجدنا أن التوراة تتحدث عن (صور) أخرى، فقد جاء في سفر حزقيال: «وكان إلى كلام الرب قائلًا: وأنت يا ابن آدم، فارفع مرثاة على صور. وقل لصور أيتها الساكنة عند مدخل البحر، تاجرة الشعوب إلى جزائر كثيرة» سفر حزقيال (١٧: ١ ـ ٣) ويذكر السفر من يتاجر مع (صور): العرب، وكل رؤساء قيدار، وحرَّان، وكنَّة، وعدن، وتجار شبا، وأشور، وكلمد. وهذه الأسماء تقع على ممر التجارة، بين بابل واليمن، بني قيدار في مكة، وحرَّان، وكنَّة، وشبوة، شمال عدن. إذًا، صور التوراتية ليس المقصود بها صور، المدينة اللبنانية الشهيرة، ولكن ماذا قُصد بـ (صور) في هذا النص ؟ لن نكرر ما قلناه من أن مسرح التوراة في اليمن.

ـ **فمن الناحية الآثارية**، ليس في آثار بلادنا فلسطين كلها أية إشارة إلى وجود مثل هذا الهيكل المزعوم، وهذا أمر معروف، تمامًا، لدى أهل الاختصاص من علماء الآثار، الذين طالما حاولوا العثور على أثر واحد في موقع الحرم الشريف بالقدس، حيث كان يقوم هيكل هيرودس الفلسطيني، فلم يفلحوا، ولن يفلحوا، لأبسط الأسباب، وهو أن سليمان لم يملك، يومًا، على بلادنا فلسطين، بل ليس هناك أقل دليل على أنه وطئ أرضها، في زمانه. وأعود لطرح هذه المعضلة على أهل الاختصاص، لماذا فشلت جميع المساعي للبحث عن دليل أثري واحد يثبت وجود هيكل سليمان المزعوم أسفل الحرم الشريف بالقدس، وبالتحديد تحت المسجد الأقصى؟! وباعتبار أننا نعثر في بلادنا فلسطين عامة على آثار من العصور الحجرية القديمة، تعود إلى نحو مليون وسبعمائة وخمسين ألف سنة خلت، ونعثر في القدس على آثار تعود إلى اثني عشر ألف سنة خلت. فإننا نتعجب من عدم وجود أدلة أثرية على وجود هذه النفايات البشرية وهيكلهم المزعوم.

ـ **من الناحية الإسلامية**، لا نجد في كل سور القرآن الكريم، التي تتحدث عن داود وابنه سليمان، أقل دليل، أو حتى تلميح على وجود مثل هذا الهيكل المزعوم في بلادنا فلسطين، علاوة على ذلك عندما فتح المسلمون بيت المقدس (٦٣٦ ميلاديًا) لم يكن بها أي أثر لمعبد يهودي، بل حتى ليهودي مقيم، وهذا يبدو جليًا من وثيقة الأمان التي أعطاها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) لأهل إيليا، فقد تضمنت الوثيقة نصًا على: [ألا يسكن بإيليا (القدس) معهم أحد من اليهود]. ويتضح جليًا من هذا النص أنه لم يكن هناك أي أثر يهودي في القدس؛ إضافةً إلى أن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، وهو أكثر العادلين على وجه الأرض، لو علم أن هناك قدسية لمدينة القدس عند اليهود لما نص على ذلك في «العهدة الشهيرة»، وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه من عدم وجود هيكل سليمان المزعوم في بلادنا، فلسطين.

ـ **أما من الناحية التاريخية**، فإننا لم نعرف ملكًا حكم مدينة صور اللبنانية باسم «حيرام»، ولو أننا أشرنا إلى ذلك، لكننا نشير ههنا إلى أن المقصود بـ (صور) التوراتية منطقة ما في الجزيرة العربية، فعند التطلع للخارطة العربية تفاجئنا العديد من المناطق التي تسمى بـ (صور)، فهناك قلعة ومرفأ صور في عُمان على مدخل الخليج[١٥]: «صَور: (بفتح فكسر): قرية في جبل (ذَرى) أحد جبلي شهارة الواقع شرقي مديرية (صُوَيْرٌ) من بلاد حَجَّة»[١٦] ولكن أهم تلك المواقع المحتمل أنه هو المقصود بـ (صور)، هو (صور) التي في عُمان التي تقع على الخليج العربي.

ـ أما قصة بناء الهيكل التوراتية فإنها إن حدثت فعلًا، فقد حدثت في إطار الجغرافية اليمنية، قد يثير هذا الرأي استغراب البعض من أصحاب، وحراس الفكر الآسن في جامعاتنا، ومراكز أبحاثنا، لكنها الحقيقة، فقد ذكرت التوراة في أخبار الأيام الثاني، الإصحاح الثاني: أن سليمان شرع ببناء بيت الرب في أورشليم، في جبل المريا، فأين جبل المريا هذا؟! إنه، في الواقع، بقي لنا من الجزر الواقعة الآن بحذاء شاطئ اليمن من المحيط الهندي، هذه الجزر تسمى (جزر خوريا موريا) مجموعة جزر عائمة، الآن، في المحيط الهندي بالقرب من ظفار باليمن بحذاء الشاطئ اليمني، تشكل ما كان قديمًا يسمى (جبل موريا)، ويكفي أنها ما زالت تحمل الاسم نفسه (المريا). وهذا الجبل دك بفعل حادث زلزالي رهيب نثره في المحيط إلى قطع متناثرة، على ما نراه اليوم. المهم أن سليمان اختار جبل المريا لبناء بيت الرب، وكلفه الكثير، وأحضر له حزم الخشب، والعبيد، والصنَّاع المهرة من الفنيين، هذا عدا أساطير الجن، والأشباح التي اشتركت في عمل البيت، وليت سليمان ما استخدم الجن؛ لأنها كما شيدته خسفت به الأرض في ليلة من الليالي السوداء اكفهرت السماء ونزل البرد والحجارة والنار والدمار على جبل المريا ومنه البيت، وتفتت الجبل بالبيت الذي بناه سليمان إلى المحيط الهندي في شكل جزر منمنمة، ولكنها وقفت راسخة كعلامة تاريخية مهمة لتعلن لنا الخبر أخيرًا أن هنا كان هيكل سليمان؟![١٧].

هل كانت (أورشليم) في اليمن؟!

بعد أن استطعنا، إلى حد بعيد، تحديد مكان الهيكل السليماني المزعوم، نتساءل: هل كانت أورشليم في اليمن؟! أود أن أوضح، أولًا، أن اسم (أورشليم) الذي يطلق اليوم تعسفًا على القدس هو إطلاق غير تاريخي. قد ينتقدنا السادة حراس وأصحاب الفكر الآسن العربي، بقولهم: وماذا عن اسم (أورشليم) في نصوص مصر ـ وادي النيل؟! أقول: إن جميع الأسماء التي أطلقت على مدينة القدس، قد وردت، بصيغ متعددة، في مواد العهد القديم، فقالوا بأن اسمها الأول

كان (يبوس)، ثم صار اسمها (أورشليم)، بصيغ متنوعة، ثم مدينة داود، صهيون، وهناك اتفاق بين الباحثين على أن أول ذكر لمدينتنا الخالدة القدس خارج التوراة قد ورد في «نصوص اللعنات المصرية»، وهي نصوص كانت تنقش على جرار فخارية، ويُذكر فيها أسماء البلدان المعادية وقادتها، ثم تكسر الجرار، بعد ذلك، في سياق طقس سحري، يهدف إلى جلب الأذى على الأسماء المذكورة. وترجع نصوص اللعنات بتاريخها إلى مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، وقد كتبت هذه النصوص على آنية من الفخار، وعلى بعض الدمى، بالخط الهيراطيقي، ومثّلت هذه الدمى أسرى موثقين، كُشف عنها في سقارة وطيبة. وهي محفوظة في كثير من المتاحف في أنحاء العالم، ويوجد منها نماذج في متحف القاهرة، والأسماء التي وردت في هذه النصوص: مصرية، ونوبية، وسورية (آسيوية)، ويقول أحد النصوص، بعد ذكره لاسم الشخص الملعون وأسرته مع حلفائهم والمشتركين معهم، الذين يثورون، أو يتآمرون، أو يقومون بالحرب، أو يفكرون بالثورة في جميع أنحاء البلاد، أو جميع الرجال، وجميع الناس، وجميع الشعب، وجميع الذكور، وجميع الخصيان، وجميع الذين يحاولون الثورة، أو التآمر، ويفكرون بالحرب. وكل كلمة شر، وكل مقالة سوء، وكل مؤامرة. وبعد كتابة الأسماء والمطالب، كان المصريون القدماء يكسرون هذه القطع الفخارية، وكأنهم كانوا يعتقدون أنه يمكن بهذه الواسطة إحباط أي عمل عدواني ضد مصر. ورواسب هذه العادة ما تزال تمارس، حتى الآن، في مصر، وبلاد الشام، وكان لها مثل فعل السحر، وتأثيره، وذلك مع الاعتقاد بأن الحرف هو كائن حي.

إن الكلمة التي وجد فيها الباحثون إشارة إلى (أورشليم) هي (Rw'szmm) الهيروغليفية. فقد قرئت الكلمة على أنها اسم مكان، ورُجِّح أن طريقة لفظها هي الطريقة المصرية للفظ كلمة «أورشليم»، التي كانت بالنسبة إليهم اسمًا أجنبيًا لبلد أجنبي يُقرأ على نحو يشبه (أ) رو ـ شاليموم (Urushalimum)، وهي قراءة قريبة من قراءة وثائق تل العمارنة، اللاحقة للاسم، ولكن هذه القراءة لقيت معارضة من الباحث الإسرائيلي ناداف نعمان (N. Na'aman)، الذي رأى أن الشطر الأول من الكلمة يجب أن يقرأ روش (ros) ويعني رأس. أما الشطر الثاني فيقرأ راميم، لتصبح الكلمة «روش ـ راميم» (Roshramem)[١٨].

يلفت الباحث المرموق في التاريخ، الأستاذ سهيل زكار، في جامعة دمشق، إلى «أن الباحثين الغربيين أقدموا فورًا على القول بأن (أشام م) هي مدينة (أورشليم)، وفي هذا تدليس مكشوف؛ لأنه من الواضح أن الذي قصد بـ(أشام م) هو بلاد الشام، التي من خلالها غُزيت مصر، دومًا، متذكرين أن تاريخ نصوص اللعنة يتزامن مع بدايات ظهور الهكسوس في مصر»[١٩].

علينا البحث، إذًا، في الجغرافية اليمنية عن أورشليم، ووفق قناعتي فإن اسمها العربي مكون من اسمين: أور ـ شليم/ سليم، ومعناهما مقام، أو محبس سليم، أو شليم «سلم: فعل بفتح الفاء، وسكون العين بالتصغير، سليم حي من اليمن من جذام، بنو سلمة بطن من الأنصار، وبنو سلمة، أيضًا، بطن من خولان»[٢٠].

لقد روى «الهمداني» نقلًا عن «ابن لهيعة»، أنه: لما أصاب داود (عليه السلام) الخطيئة أعمل الاختلاف إلى غيران العباد، حتى وقع على حراء، جبل العباد، فأوحى إليه أن يدخل إلى غار بالقرب منه، فهبط إليه داود (عليه السلام)، فإذا فيه ميت مسجى، وإذا عند رأسه صفيحة من نحاس مكتوب فيها: أنا ذو شلم الملك ملكت ألف سنة، وافتتحت ألف مدينة، ونكحت ألف عاتق، ثم صرت إلى الأرض فراشي التراب، ووسادي الحجر، وجيراني الدود، فمن رآني فلا يغتر بالدنيا بعدي[٢١].

لقد ذكرت التوراة في العديد من المواضع اسمًا آخر لأورشليم، هو (يبوس): «فلم يرد الرجل أن يبيت، بل قام، وذهب، وجاء إلى مقابل يبوس، هي أورشليم. وفيما هم عند يبوس. تعالى نميل إلى مدينة اليبوسيين هذه، ونبيت فيها» سفر القضاة (١٩: ١٠ ـ ١١)، ثم «.. ذهب داود، وكل إسرائيل إلى أورشليم، أي يبوس. وهناك اليبوسيون سكان الأرض. وقال سكان يبوس. وقال داود إن الذي يضرب اليبوسيين، أولًا، يكون رأسًا وقائدًا» سفر أخبار اليوم (١١: ٤ ـ ٦). ويرد هذا الاسم، أيضًا، اسمًا لقوم: «وأما اليبوسيون، الساكنون أورشليم». سفر يشوع (١٥: ٦٣) ثم «وذهب الملك ورجاله إلى أورشليم إلى اليبوسيين سكان الأرض. أن الذي يضرب اليبوسيين ويبلغ إلى القناة..» سفر صموئيل الثاني (٥: ٨، ٦).

بالرغم من ذكر التوراة لهذا الاسم، فإن الوثائق الأثرية قد صمتت بخصوصه صمتًا مطلقًا. لكننا عندما نفتش في جغرافية اليمن يصادفنا فورًا هذا الاسم الذي لا يزال باسم (بيت بوس): «بوس: فعل بفتح الفاء، وسكون العين، ذُو بَوْس ذي سَحَر ملك من ملوك حمير، إليه يُنسَبُ بيت بوس حِصنٌ بالقُرْبِ من صَنْعاءَ»[٢٢].

في ذلك يقول المؤرخ اليمني المعروف محمد بن علي الأكوع، محقق كتاب «صفة جزيرة العرب»: «بيت بوس: بفتح الباء الموحدة، وسكون الواو، آخره سين معجمه: نسب إلى القيل ذي بواس بن شرحبيل بن بريل، وهو قرية، وحصن عامر، وواد فيه بعض الفواكه، ويقع إلى الغرب الجنوبي من صنعاء، بمسافة ساعتين، وفيه حبس أمير اليمن علي بن الحسين جفتم القادم من العراق، سنة ٢٩٠ هـ، وفيه حبس المرتضي محمد بن الهادي، سنة ٢٩٠، أيضًا، وقال فيه قصيدة منها:

يا بيت بوس حُبِسْنا في حواك على خذلان أمتنا من بعد ميثاق [٢٣]

قد ينتقدنا البعض، ولكننا نقول لهم: ليحكم بيننا وبينكم كتابكم (التوراة)، فالتوراة تقول في سفر يشوع (١٥ـ ٨): «وصعد التخم في وادي ابن هنوم إلى جانب اليبوسي من الجنوب، هي أورشليم»، ووادي ابن هنوم هو وادي هنومه، حدده المؤرخ اليمني العظيم، يحيى بن الحسين، من أعلام القرن الحادي عشر، أكثر من مرة في يومياته عن صنعاء[٢٤].

أما ما يخص (صهيون) المفردة لـ (أورشليم) و(يبوس)، والتي ترد بكثرة في التوراة، مثال سفر عاموس (٦: ١) حيث جاء: «ويل للمستريحين في صهيون». أليست (صهيون) هي (سيئون)، جنوب اليمن، حيث، يمنيًا، يتم التبادل بين لفظ الصاد والزين والسين؟! ويذكر العلامة السيد عبد الرحمن السقاف، صاحب معجم بلدان حضرموت، المسمى «إدام القوت في ذكر بلدان حضرموت» رواية نقلًا عن المؤرخ محمد بن عقيل بن يحيى تقول: إن سيئون [سيوون] اسم يهودي مُحَرف عن صهيون[٢٥].

فـ (سيئون) من مدن حضرموت، ذكرها كحالة، فقال: «ومن مدن حضرموت سيئون عاصمة الحكومة الكثيرية وتقع على حرف جبل سيئون». ولا تزال اليوم مدينة مهمة وهي مركز محافظة شبوة[٢٦].

ويقول «الأعشى» وهو شاعر شهير من همدان اليمن، في قصيدته، يخاطب فيها أساقفة نجران، وسادتها «يزيد وعبد المسيح ابني الديان». ومستعيدًا قصة الأخدود:

ألا سيدَي نجران لا يوصِينكما بنجران فيما نابها واعتراكما
فإن تفعلا خيرا وترتديا به فإنكما أهلٌ لذاك كلاكما
وإن تكفيا نجران أمر عظيمة فقبلكما ما سادها أبواكما
وإن أجلبت صِهيَونُ يوما عليكما فإن رحا الحرب الدكوك رحاكما (٢٧)

هنا يسجل الأعشى اسم صهيون، تمامًا، كما في الكتاب المزعوم بالمقدس، ومن المتعارف عليه بين المؤرخين أن قصة الأخدود كان مسرحها جزيرة العرب، وفي نجران بالتحديد، وكانت نتيجة صراع مرير وعنيف بين اليهودية والمسيحية. فقد كانت صهيون المذكورة في شعر الأعشى مدينة يمنية لا علاقة لها بالقدس، وفلسطين، من قريب أو بعيد.

* * *

هوامش الفصل الرابع:

(١) لورنس دفدسن، **الآثاريات الكتابية والصحافة صياغة التصورات الأمريكية لفلسطين في العقد الأول من الانتداب**، ترجمة: فاضل جتكر، ط١، دراسات قدمس (٤)، قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠١، ص١٢٥.

(٢) فرج الله صالح ديب ، **كذبة السامية وحقيقة الفينيقية**، ط١، دار نوفل، بيروت، ١٩٩٨، ص ٣٢.

(٣) كيث وايتلام ، **تلفيق إسرائيل التوراتية طمس التاريخ الفلسطيني**، ترجمة: ممدوح عدوان، ط٢، قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٢، ص ٢٢٣.

(٤) أحمد الدبش ، إسرائيل أمة مفتعلة، **العصور الجديدة**، (القاهرة) العدد ١٥، السنة الثانية، دار العصور الجديدة، القاهرة، نوفمبر ٢٠٠٠.

(٥) كيث، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٢٤.

(٦) **المصدر نفسه**، ص ٣٥٦.

(٧) يسرائيل فنكلشتاين ، **القدس العربي** (لندن)، بتاريخ ١٩٩٨/ ٤/ ١٥.

(٨) تومس طمسن ، **الماضي الخرافي (التوراة والتاريخ)**، ترجمة: عدنان حسن، ط٢، قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٣، ص ٢٦٧ - ٢٦٩.

(٩) **المصدر نفسه**، ص ٣٢٣ - ٣٢٤.

(١٠) تومس طمسن، د. سلمى الخضراء الجيوش، **أورشليم العصور القديمة بين التوراة والتاريخ**، ترجمة: فراس سواح، ط١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٣، انظر: مارغريت شتاينر، حدود متوسعة، تطور أورشليم في عصر الحديد ١٣١٣ ـ ١١٦).

(١١) **المصدر نفسه**. (انظر : إنغريد هيلم ، قتال الإخوة: النزعة الإثنية لدى اليهود والسامريين في التاريخ والروايات التوراتية، ص ٢٩٢).

(١٢) د.محمد مصطفى الأعظمي، علماء كوبنهاجن وشيلفد يفضحون تزوير تاريخ إسرائيل القديم البروفيسور تومس طمسن نموذجًا، الجزيرة (الرياض)، العدد ١٠٦٠٢ مؤسسة الجزيرة للصحافة والطباعة والنشر، السعودية، رجب ١٤٢٢.